

ملاح لمستوى المعيشة في التاريخ العرني الإسلامي و دراسته في العصر الحاضر

د. عبد الكريم اليافي

كثيراً ما يشبه المجتمع بالفرد ويشبه الفرد بالمجتمع •

إذا أردنا أن نصف انساناً ما ونحكم عليه انتبهنا لصحته ونظافته ولباسه ومسكنه ودخله وخرجه ثم لثقافته وخلقته واتجاهه الفكري وبوجه عام لمستوى معيشته وحياته •

كذلك إذا أردنا أن نصف فئة من الناس أو جماعة أو شعباً ونحكم عليهم لزم أن ننتبه لخصائص ذلك الشعب أو الجماعة أو الفئة من الناحية الطبيعية التي تضم قضايا الصحة والسكن والتغذية وللجوانب الاجتماعية التي تشمل الثقافة والمزايا الانسانية التي يستمتع بها أفراد الشعب وبوجه عام نحاول أن نحدد مستوى المعيشة لديهم ما استطعنا الى ذلك سبيلاً •

ولكن تحديد مستوى المعيشة هذا لدى شعب من أصعب الأمور ، لأن هذا المستوى يشمل عناصر كثيرة ومتفاوتة تتباين فيها المجتمعات كما تتباين الأفراد كالعلوم والفنون والمرافق الثقافية ومقدار الرزق والرفاهية وأحوال العمل والأمن والسكن والنظافة والصحة •

ويزيد الأمر صعوبة أنه لما كان مستوى المعيشة يستعمل في الغالب للموازنة بين المجتمعات لزم تقدير تلك الخصائص والعناصر تقديراً دقيقاً ،

تقديرًا كميًا ما أمكن أي مفاداً بأرقام منسوبة للشخص أو الجماعة أو الطبقة الاجتماعية أو الشعب . ولا يتيسر أن نتتبع أحوال الناس فرداً فرداً ، ولذلك لا بد من النظر الى هذه الأمور نظرة وسطية احصائية واعتبار مستوى المعيشة وقياسه أمرين تقريبيين . وسنعود فنناقش هذا الموضوع في نهاية البحث .

لقد اعتدنا في مباحثنا أياً كانت علمية أو اجتماعية أو غيرها أن ننقّب في أطواء تراثنا الواسع لعلنا نجد سمات وإشارات وسوابق لما نحن بصده . ولا شك أننا عندئذ نجد أشياء كثيرة ممتعة لاتساع ذلك التراث العربي الاسلامي وامتداده أجيالا وقروناً متطاولة ولتضمنه مختلف الصروف والأحوال ولاشماله على رقاع مترامية من الأرض تلالأت تلك الحضارة في ربوعها .

ونحن هنا نشير الى لمحات جلية ومفيدة في هذا المجال دون تمام التقصي اذا كانت تلك اللمحات تشف عن جوانب من المعيشة أو كانت توحى بمستواها مرتفعاً أو منخفضاً .

□ مستوى المعيشة في التاريخ العربي :

لا بد أول الأمر من تصفح الشعر القديم لأن الشعر كما قيل « ديوان العرب » . نجد مثلاً زهير بن أبي سلمى الجاهلي حين يتذكر أحبابه المترحلين يصف الأنماط الكريمة التي فرشوها على الطعائن والكلل الوردية الحواشي والرحال الواسعة الجديدة المطرزة المعروضة تحت الهودج ولا ينسى حركة الدلال الناعم تثني بعض الشيء قدود الأحباب وهن يمضين لطيتهن في الهودج القشبية ولا ألوان الصوف المصبوغ الأحمر الذي يبقى فتات منه في كل منزل نزلنه الى غير ذلك من صفات الأشخاص والطعائن والمخيمات :

تبصر خليلي هل ترى من طعائن	تعملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بأنماط عتاق وكلة	وراد حواشيها مشاكهة الدم
ظهرن من السوبان ثم جز عنه	على كل قيني قشيب ومفام
ووركن في السوبان يعلون متنه	عليهن دل الناعم المتنعم
كان فتات العهن في كل منزل	نزلن به حب الفنا لم يحطم
وفيهن ملهى للصديق ومنظر	أنيق لعين الناظر المتوسم

فلا شك أن هؤلاء الأحباب بظعائهن وكسوتها القشبية الملونة الجميلة من مستوى عال في القبيلة التي ينتسبن لها حتى انهن ليجتذبن الأبصار المتوسمة بمنظرهن الأنيق المتنعم .

زهير توفي سنة ٦٣١ م أي قبل بعثة الرسول بواحد وعشرين عاماً .

ولما جاء الاسلام استطاع جمع العرب وتوحيدهم وحفزهم على مزاولة القيم الرفيعة . وكان أكبر معجزة له نزول القرآن بأعجازه وبلاغته ومعانيه وارشاده وتشريعه وما فيه من ترغيب وترهيب . ومن جملة الترغيب وصفه لدرجات الآخرة ومكانة المؤمنين في الجنة حسبها .

وقد صنف القرآن المؤمنين في سورة الواقعة صنفين . السابقون وأصحاب اليمين . وبإشارات خاطفة بليغة رسم صوراً بديعة لأعلى مستوى في معاش المدن وعد به السابقين ولأعلى مستوى للحياة في البادية وعد به أصحاب اليمين . « والسابقون السابقون . أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاءً بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . الا قليلاً سلاماً سلاماً . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهم إنشأاً . فجعلناهم أبقاراً . عرباً أتراباً . لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين . »

جاء في تفسير البيضاوي « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » : « كأنه لما شبه حال السابقين في التنعم بأكمل ما يتصور لأهل المدن شبه حال أصحاب اليمين بأكمل ما يتمناه أهل البوادي اشعاراً بالتفاوت بين الحالين . »

على أن القرآن الكريم يشير الى أن الحياة بعد البعث تختلف عنها في الدنيا . جاء في السورة نفسها بعد عدة آيات يصف فيها حال أصحاب الشمال في الآخرة وعذابهم : « نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . »

على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون .» أي يتعذر علم تلك الأحوال على حقائقها في الآخرة . فالتمثيل وارد في القرآن الكريم لأنه تنزيل ولا بد من التأويل في بعض الأحيان أي الرجوع الى الأول . ونشير هنا الى أن لفظ أمثالكم كما يشرح المفسرون يمكن أن يكون جمع مثل بكسر الميم وتسكين الشاء وعندئذ يكون المعنى على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق فنخلق بدلكم . ويمكن أن يكون جمع مثَل بفتح الميم والشاء بمعنى الصفة وعندئذ يكون المعنى على أن نبدل صفاتكم التي أنتم عليها وننشئكم في خلقٍ أو صفات لا تعلمونها .

وكلنا نعلم التغيير الكبير والتقدم الهائل اللذين طرأا على العرب وعلى بلادهم بالدين الجديد حين ألّف بين قلوبهم وجعلهم طاقة تقديم هائلة حورت اخوانهم في بلاد الشام وما بين النهرين وفي شمالي افريقية وزودهم بالخيرات التي تدفقت عليهم بهذا التعاون . فقد ارتفع مستوى حياتهم ولا سيما في زمن الأمويين . وكتب التاريخ مشحونة بالروايات التي تشف عن ذلك .

ورد في الرواية أن عمر بن الخطاب قدم على معاوية حين كان أميراً على الشام فرآه في أبهة الملك فأنكرها عليه وقال له أكسروية يا معاوية ؟

وقد تغير لباس الناس ولا سيما الولاة . ذكر الثعالبي في كتابه لطائف المعارف أن أول من لبس الخز الأدكن من العرب عبد الله بن عامر بن كريز . ولما لبس جبة منه وخطب على منبر البصرة وكان وليها لعثمان رضي الله عنه قال الناس : قد لبس الأمير جلد دب .

وجاء في كتاب لطائف المعارف أيضاً أن زياد بن أبيه أول من لبس الثياب الديبكية^(١) وأول من بنى بالجص والأجر بالبصرة .

وورد عن المغنّي ابن سريج في كتاب الأغاني قوله : « دعاني فتية من بني مروان فدخلت اليهم وأنا في ثياب الحجاز الغليظة الجافية وهم في القوهي^(٢) والوشي يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية » .

إلا أن ارتفاع مستوى المعيشة الذي كان يدل عليه التأنيق في اللباس والمسكن واللهو كانت توقفه السنون العجاف . كان زمن عمر بن عبد العزيز من أسعد

عهود الأمويين اذ حاول بعدله وأمانته وتقصفه وتواضعه أن يرتق الانحراف الذي انحرفه طائفة من الأمويين في احتجائهم الأموال وأن يبطل المغارم التي استحدثت في زمن الحجاج بن يوسف وأن يرد الهبات والاقطاع ولو كانت له ولأهل بيته الى بيت المال . رد قرية فدك التي انتهت اليه بالوراثة الى بيت المال . وقد قال لامرأته فاطمة بنت عبد الملك - وكان عندها جوهر أمر لها أبوها به لم ير مثله : اختاري اما أن تردي حليّك الى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك فاني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد . قالت لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه لو كان لي . قال فأمر به فحمل حتى وضع في بيت مال المسلمين . فلما هلك عمر واستخلف يزيد قال لفاطمة : ان شئت يردونه عليك . قالت : فاني لا أشأؤه طبت عنه نفساً في حياة عمر وأرجع فيه بعد موته ؟ لا والله أبداً . فلما رأى ذلك قسمه بين أهله . « (٣) ومع العدل ورد المظالم حلت سنة شديدة في الحجاز وشبه الجزيرة العربية لقلّة الغيث وصفها وصفاً بليغاً موجزاً الشاعر الكبير جرير حين وفد على عمر بن عبد العزيز فأنشده قصيدة أبكاه بها ولا سيما حين ذكر الشدة التي أصابت الناس حتى غدا الحضري لا ينفع البدوي بشيء ولا البدوي ينفع الحضري كما يصور أحوال الأرامل واليتامى :

انا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
ثم يقول :

أذكر الجهد والبلوى التي نزلت	أم تكتفي بالذي بلغت من خير
ما زلت بعدك في دار تعرقني	قد طال بعدك أصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود باديها	ولا وجود لنا باد على حضري
كم بالمواسم من شعناء أرملة	ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به	خبلا من الجن أو مسأمن النشتر (٣)
ممن يعذك تكفي فقد والده	كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

هذا ولما اتسعت الحضارة العربية واستفاضت خيراتها زمن الخلافة العباسية تعددت جوانبها فنشأ مؤرخون انتبهوا لبعض هذه الجوانب التي تشف عن استفاضة تلك الحضارة واتساعها وعمومها مختلف فئات السكان . من أهم مزايا الحضارة العربية الاسلامية اهتمامها بالجسد والأعضاء ونظافتها الى جانب تزكية الروح .

لقد عمد أبو الحسين هلال بن المحسن الصابي في كتابه « رسوم دار الخلافة »^(٥) الى ما ذكره المؤلفون قبله من عدد الحمامات العامة في بغداد . يورد من جملة التخمينات أنها غدت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة ألفاً وخمسمائة حمام ونيفاً في زمن بهاء الدولة البويهية بعد أن كانت في زمن المقتدر (خلافته من ٢٩٥ - ٣٢٠) - (٩٠٨ - ٩٣٢ م) سبعة وعشرين ألف حمام . ولكنه يحصيها حين ألف كتابه في زمن الخليفة القائم بأمر الله خلافته (٤٢٢ / ١٠٣١ - ٤٦٧ / ١٠٧٥) فيجد عددها مائة ونيفاً وخمسين حماماً وقد تناقص عددها بسبب انتقال الجند الى سرمن رأى وبسبب الاضطرابات الداخلية الكثيرة فاذا قدرنا نحن الآن أنه يقابل كل حمام وسطياً ألفاً أسرة كان عدد سكان العاصمة اذ ذاك حول ثلاثة ملايين نسمة وهو عدد كبير في ذلك الوقت . ولكن المؤلف يقدر عدد السكان تقديراً أكبر بكثير من هذا العدد ثم يعقب على ذلك بقوله ومعلوم أن بلداً كانت على نهريه الذي يخترقه أعني دجلة ثلاثة جسور لا يستبعد كون ساكنيه العدة المذكورة . ولا شك أن بغداد كانت أولى المدن العملاقة في تاريخ الحضارة الانسانية .

كذلك يذكر المؤلف دخل المملكة الذي يسميه ارتفاعاً في تقدير الوزير علي بن عيسى لميزانية الدولة التي كانت تسمى « العمل » وذلك سنة ٣٠٦ أيام الخليفة المقتدر فيبلغ الدخل ٨٤٠،٨٢٩،١٤ ديناراً باستثناء ما يجبي من بعض البلاد التي تشملها الخلافة . ثم يفصل الخرج والنفقات الخاصة .

وينقل المؤلف عن كتاب « فضائل بغداد العراق » الذي ألف للمعتضد بالله أن ثمن ما كان يباع من الباقل المطبوخ (أي الفول) في كل يوم في أحد جانبي بغداد ستون ألف دينار . وحق ذاك أن يكون في الجانبين جميعاً مائة وعشرين ألف دينار .

على أن مؤلفين آخرين انتبهوا للأديار ببغداد وضواحيها ولما كان فيها من نُزّهٍ واستجمام وقصف وشراب . نجد ذلك في كتاب « الديارات »^(٦) لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (متوفى ٣٨٨ هـ - ٩٩٨ م) وفي قراءته متاع اذ نجد فيه موقع كل دير ومن كان يختلف اليه من الأدباء والشعراء والأمراء وغيرهم

الى جانب الشعر البديع الذي كانت تلك الأديرة توحى به الى الشعراء . كل دير منها يصح أن يستشهد به ولكننا هنا نذكر عرضاً دير السوسي وقول المؤلف فيه : « والناس يقصدون هذا الدير ويشربون في بساتينه . وهو من مواطن السرور ومواضع القصف واللعب . ولا بن المعتز فيه :

يا ليالي بالمطيرة والكر خ ودير السوسي بالله عودي
كنت عندي أنموذجاً من الجنة لكنها بغير خلود

وقد نهى بعض مؤلفي الكتب بعدحين من الزمن الى ذكر الحانات في العراق . كابن فضل الله العمري (٧٠٠ - ٧٤٩ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩ م) في كتابه « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » .

وكذلك أدت بلهنية العيش وغضارة الحياة في بغداد الى نشوء فئة من الناس اتسمت بالظرف وتسمت بالظرفاء كتب عنها الوشاء (توفي سنة ٣٢٥ هـ) .

كتابه « الموشى » تحدث فيه عن دماثتهم وحياتهم الراقية وآدابهم في الحديث والطعام والشراب واللباس ورقة الطبع والتلطف في كل الأمور والمداواة والتأني والرفق واجتناب القبيح والسمو الى معالي الأمور . وكل ذلك يدل على الرفاهية المنتشرة اذ ذاك . وقد يوحى بعض التعابير بما لا تبين عنه الفقر الطوال . كانوا يقولون عن بغداد كما جاء في « معجم البلدان » : « بلد لا يشبه البلدان ولا كان مثله في قديم الأزمان » . وقد قال يونس بن عبد الأعلى : « قال لي محمد بن ادريس الشافعي أبا يونس دخلت بغداد ؟ فقلت : لا فقال : أبا يونس ما رأيت الدنيا ولا الناس » .

هذا كله الى جانب المساجد الحافلة وحلقات العلم العامرة ولكن الشعراء كانوا أكثر تغنياً بالصفات الدنيوية . يقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير (١٨٢ - ٢٣٩ هـ / ٧٩٨ - ٨٥٣ م) يصف حياة بغداد المواراة بالصور الحلوة البديعة وفي أبياته الآتية مشاعر البدوي الذي يدخل العاصمة ، وتنسب الأبيات أيضاً لمنصور النمرى (ت حول ١٩٠ هـ - ٨٠٥ م) :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
ما بين قطربل فالكرخ نرجسة
تحيا النفوس بريها اذا نفحت
سقى لتلك القصور الشاهقات وما
تستن دجلة فيما بينها فترى
مناظر ذات أبواب مفتحة
فيها القصور التي تهوي بأجنحة
من كل حراقة تعلقو فقارتها

على قلبها في كل ما حين
تندى ومنبت خيري ونسرين
وحرشت بين أوراق الرياحين
تخفي من البقر الانسية العين (٧)
دهم السفين تعالى كالبراكين
أنيقة بزخاريف وتزيين
بالزائرين الى القوم المزورين
قصر من الساج عال ذو أساطين

والمواسم الكبيرة قد تتجهج للوافد أول الأمر بسبب اتساعها واشتباك الحياة فيها . ولكن هذا الوافد لا يلبث بمدهين أن يتعرف مداخلها ومخارجها ، ظواهرها وبواطنها فيألفها ويرتاح لها أي ارتياح . قال أبو بكر الخطيب مضمناً بيتاً كان متداولاً :

على بغداد معدن كل طيب
سلام كلما جرحت بلحظ
« دخلنا كارهين لها فلما
وما حب الديار بنا ولكن

ومغنى نزهة المتنزهينا
عيون المشتكين المشتين
ألفناها خرجنا مكرهينا »
أمر العيش فرقة من هويننا (٨)

ومن الطبيعي أن يضيق بها المفلسون .

بغداد أرض لأهل المال طيبة
أصبحت فيهم مضاعاً بين أظهرهم

وللمفالييس دار الضنك والضيق
كانني مصحف في بيت زنديق (٩)

ومن الكتب البديعة التي تصف حياة المدن وخيراتها ورخاءها « نزهة الأنام في محاسن الشام » لأبي البقاء عبد الله البدرى المصرى الدمشقى من علماء القرن التاسع الهجري وشهرة الكتاب تغنينا عن التعليق عليه .

وأمثال هذه الكتب وان كانت تصور جوانب من مستوى الحياة وتفيد في تعرفه ولكنها تقصّر عن الموازنة . وأهم من انتبه لأنواع مستوى المعيشة

المؤرخ العبقري ابن خلدون فهو في مقدمته يبحث الأسعار في المدن الكبيرة وفي المدن الصغيرة والقرى وأمثالها فيميز في حاجات الناس بين الضروري كالقوت الذي يحتاجه الفرد مثل الحنطة والباقلی والبصل والثوم وأشباهه والكمالي في الغذاء كبعض الفاكهة وكالمسكن الجيد والملبس القشيب وأصناف الأثاث الفاخر ويرى أن المدينة الكبيرة ترخص فيها أسعار الضروري لشدة الحاجة اليه ولتوافر الدواعي على اتخاذه وتغلو أسعار الكمالي لأنه من نوع التأنق والترف فيقصر الموجود منه عن الحاجات قصوراً بالغاً ويكثر المستامون له فيزدحم أهل الأغراض ويبذل أهل الرفه والترف أثمائه في الغلاء . وعلى العكس من ذلك أسعار الكمالي والضروري في المدن الصغيرة القليلة الساكن . وكذلك تكون الأسعار في الأمصار أغلى منها في البادية إذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم أو معدومة .

ويتحصل من ذلك « قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران » كما جاء في عنوان فصل قصير من المقدمة . وذلك « أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه من أجل الترف وتعتاد تلك الحاجات لما يدعو اليها فتقلب ضرورات، وتصير فيه الأعمال كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدهام الأغراض عليهما من أجل الترف وبالمغارم السلطانية التي توضع على الأسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء في المرافق والأقوات والأعمال ، فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم » .

لقد ذكرنا على الأغلب صفات بعض البلاد في الأحوال المعتادة الطبيعية ولدى ازدهار الموارد الاقتصادية وقد تلتا في السنون العجاف حين تكون البلاد غنية تسود فيها العدالة ويمتنع الاحتكار كما رأينا عرضاً في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز . ولكن صروف الزمان والقحط قد تكون شديدة جداً بحيث تجتاح البلاد المجاعات الفظيعة .

لما مات الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي قام أولاده باعلان تفردهم بالحكم في أجزاء المملكة . ففي دمشق كان الأفضل وفي القاهرة كان العزيز وفي حلب كان الظاهر . كل منهم قام ملكاً على عرش الحكم .

واستطاع الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين التحكم على أفراد الأسرة الأيوبية واحداً بعد واحد ، فجعل مصر والقسم الأعظم من سورية في قبضته وبقي المسيطر على أجزاء الدولة الأيوبية حتى وفاته سنة ٦٢٥ هـ - ١٢١٨ م .

وفي زمنه نقصت زيادة النيل نقصاناً ذريعاً فقد بلغت زيادته سنة ست وتسعين وخمسماية (١١٩٩ م) في مطلع سيطرته على مصر اثنتي عشرة ذراعاً واحداً وعشرين اصبعاً مع أن الحدالمعتبرلفائدة الزيادة ألا ينقص عن ست عشرة ذراعاً وكان مثل ذلك النقص نادراً جداً فظهرت آثاره في حوادث سنة سبع وتسعين وخمسماية وصادف أن زار مصر في تلك الآونة الطبيب المشهور موفق الدين عبد اللطيف البغدادي المعروف بابن اللباد فكتب « كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر »^(١٠) يصف فيه تلك الحوادث التي شاهدها فيقول : « ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد وأُشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد أيادي سبا ومزقوا كل ممزق ودخل الى القاهرة ومصر منهم خلق عظيم واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت » ولم يقف الأمر عند القحط هذا ، بل حل وباء شديد . يقول ابن اللباد : « وعند نزول الشمس الحمل (أي في بداية الربيع) وبىءَ الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والروث ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صغار بني آدم . فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والأكل » . ويورد مؤلف الكتاب بعض المشاهد الغريبة التي شاهدها فيقول : « ورأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر الى دار الوالي ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما » .

ووجد في رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقي قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم » . ويعلق المؤلف الطبيب على ذلك قائلاً : « ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تَطَلَّبَه بكل حيلة ، وكذلك كل من أثر الاطلاع على علم التشريح » . ويكمل ابن اللباد حديثه : « وحينما

نشم^(١١) الفقراء في أكل بني آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون في ذلك استفظاعاً لأمره وتعجباً من ندوره ثم اشتد قرمهم اليه وضراوتهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له .

وقد رأيت امرأة مشجبة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفر معها بصغير مشوي تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره . فعاد تعجبي منهم أشد . وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه » .

ثم يقول : « وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين في جميع أقطار البلاد وأزقة الدروب كالجراد المنتشر . ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم . وانما يعثر عليهم في الندره ، واذا لم يحسنوا التحفظ . »

ويقول أيضاً : « واذا أُحرق آكلٌ أصبح وقد صار مأكولاً لأنه يعود شواء ويستغنى عن طبخه . »

ويورد ابن اللباد مشاهدات له جمعة مستغربة مستفضة في هذا الصدد ثم يقول : « ولو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر . وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه ، وانما هو شيء صادفناه اتفاقاً بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره . »

واذا وقع في الأدب المكتوب ضرب من الوصف الفظيع أو المستبشع فان الوصف الذي ورد في كتاب ابن اللباد من هذا النوع .

ويتحدث المؤلف أيضاً عن الموتان بالوباء في السنة نفسها حديثاً ليس أقل تأثيراً واستبشاعاً فهو يقول :

« فالذي شاهدناه بمصر والقاهرة وما تأخ ذلك أن الماشي أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت أو من هو في السياق أو على جمع كثير بهذه الحال . وكان يرفع من القاهرة خاصة الى الميضاة كل يوم ما بين مائة الى خمسمائة . وأما

مصر فليس لموتها عدد ويُرْمون ولا يوارون ثم بأخيرة عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق وبين البيوت والدكاكين وفيها • والميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه • »

ولما جاء المقرئزي مؤرخ الديار المصرية كتب كتاباً صغيراً مفيداً في تاريخ المجاعات في مصر دعاه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » (١٢) أفاض فيه بذكر المجاعات القديمة التي توالى على مصر وأشار الى تلك المجاعة التي وصفها عبد اللطيف البغدادي • وأكثر الظن انه قرأ كتابه اذ لخص أخبارها ثم أفضى الى ذكر المجاعة التي وقعت لعهد سنة ست وثمانئة حين قصر النيل عن الزيادة • والمهم عند المقرئزي ليس مجرد الوصف والرواية بل بيان الأسباب فهو يذكر الى جانب الأسباب الطبيعية كتقصير النيل وغيره أسباباً داخلية فيورد أولها - وهو أصل الفساد - ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة وثانيها غلاء الأطنان ويريد بذلك الأراضي الزراعية وغلاء استئجارها حتى بلغ الفدان لعهد نحواً من عشرة أمثاله قبل الحوادث كما تزايدت كلفة الحرث والبذر والحصاد وغيره وعظمت نكايه الولاة والعمال • ويذكر المؤلف السبب الثالث وهو رواج الفلوس وسكها من النحاس وزيادته ازيادة كبيرة واتخاذ الذهب والفضة على الأكثر للحلي • وهذا ما يمكن أن ندعوه في العصر الحاضر بالتضخم ويرى المقرئزي ضرورة مداواة النقد واصلاحه

على أن المؤلف في آخر كتابه يصنف الناس تصنيفاً اقتصادياً ويبين جُملاً من أحوالهم لايضاح مستويات معاشهم فيرى أن الناس في زمانه باقليم مصر سبعة أقسام : القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق ، والقسم الرابع أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف ، والقسم الخامس الفقراء وهم جلّ الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهم السوّال الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم •

ولم تكن بلاد الشام ممتنعة على مثل هذه المجاعات وليس عهد المجاعة ابا ن الحرب العالمية الأولى أي «السفر برلك» ببيعيد • جاء في كتاب « يقظة العرب » لجورج أنطونيوس قطعة من مقال نشرته صحيفة التايمز في الثاني عشر من آب سنة ١٩١٦ بقلم مراسل محايد غادر سورية قبيل ذلك التاريخ بقليل هذا نصها : « ان حال أهالي سورية مما لا يكاد يصدق ••• هناك يتعرض المسلمون الناطقون بالعربية لارهاب جديد • ويقدر عدد الذين قضت عليهم المجاعة في شمالي سورية بين الستين ألفاً والثمانين • »

كذلك نشرت التايمز في ١٥ ايلول رسالة لسيدة أميركية عاشت في بيروت وغادرتها في صيف ذلك العام جاء فيها :

« بدأت حالات الجوع تظهر قبيل حلول الربيع ، اذ وجد ناس مطروحون في الشوارع وقد زاي لهم الوعي وحملوا الى المستشفيات • ولقد مررنا بنساء وأطفال ارتموا على جوانب الطرق وعيونهم مغمضة ووجوههم شاحبة ترهقهم صفرة الموت • وكم وجدنا أناساً يفتشون في أكوام القمامة عن قشور البرتقال والعظام البالية وغيرها من الفضلات ويأكلونها في نهم ان وجدوها • وفي كل مكان كانت النساء يشاهدن وهن يبحثن عن الأعشاب الصالحة للأكل بين الحشائش النامية على مدى الطرقات • »

وقد علق مؤلف الكتاب على هذه الفقر بقوله : « ذلك هو ما كان يحدث في بلاد تنتج في العادة كميات وفيرة من المؤن الغذائية الأساسية بأكثر مما تستطيع استهلاكه • ومع ذلك فان المستقبل كان يخفي من البلايا ما هو أعظم » ثم يورد المؤلف في فصل آخر « أن الدمار الذي أحدثته المجاعات في السنتين التاليتين زاد عشرة أضعاف ويرى أن الذين ماتوا بسبب الجوع والأمراض الناشئة عن سوء التغذية لا يقلون عن ثلاثمائة ألف نفس • ووقع في لبنان مثل ذلك أو أشد • »

□ مستوى المعيشة في الغرب لعهد قريب :

لو نظرنا في ماضي الغرب لنتبين مستويات المعيشة في ربوعه لطال بنا البحث في تقصي المجاعات التي انتابته والأوباء التي اعتورته ولا سيما الطاعون الأسود الذي أحاط به عام ١٣٤٠ • نترك ذلك الماضي السحيق وضبابه لنشير

الى لمحة واحدة كاشفة في العهد الحديث وذلك في نهاية القرن الثامن عشر .
فلقد ساح كاتب اقتصادي انكليزي هو آرثور ينغ Arthur Young في فرنسا
ووصف أحوال مقاطعاتها في كتاب له Travels in France . فذكر مشاهد
البؤس والفقر في جميع أنحاءها وبدأت له فرنسا غاصة بالسكان بالنسبة لمساحتها
ولنظامها الاقتصادي المرتكز على الزراعة على الرغم من التحسينات الزراعية
والاجتماعية التي حصلت بين سنة ١٧١٤ حين كان الشعب الفرنسي ١٨ مليون نسمة
وسنة الثورة ١٧٨٩ حين بلغ عدد السكان ٢٧ مليوناً . وجد السائح النساء
الفرنسيات خاصة في دركٍ جد منخفض من الوساخة . فهو حين بلغ مقاطعة
لنغدوك يتحدث عن هذه الكائنات التي لا تدعى بالنساء الا لياقة والا فهي روث
متجول . اذا قرأنا هذا الوصف ورد على البال فوراً عدد الحمامات في بغداد قبل
نحو ألف سنة من ذلك العهد .

وفي القرن الثامن عشر حصل الانقلاب الصناعي في الغرب اذ تهيأت للانسان
موارد طاقة جديدة من بخار وكهرباء ، فاستطاع استغلال هذه الطاقة بالآلة وبدأ
تراكم الثروات الضخمة في الغرب على طريق التجارة مع البلاد الأخرى . كانت
التجارة أقرب الى الاستغلال والسلب منها الى المقايضة والمبادلة الصحيحة .
وحفل تاريخ البرجوازية الغربية بصور ذلك الاستغلال . كانت التجارة والصرافة
في المستعمرات الاسبانية والانكليزية والفرنسية تدر على البلدان الأوروبية بأنهار
من الثروة .

وكانت السفن المزودة بالمدافع تحمل من أمريكا اللاتينية الذهب والفضة
والبضائع الثمينة . كذلك عملت تجارة الرقيق الغاشمة على استصلاح الأراضي
في مستعمرات العالم الجديد . ثم ان فائض القيمة في الأسعار زاد مدخرات
رأس المال في أوربة وفي اليابان خلال مائتي السنة الفائتة زيادة كبيرة حين كان
الأولاد الصغار والرجال المسنون الى جانب الكهول يشتغلون في المناجم والمعامل
اليديوية والمخازن عشر ساعات الى أربع عشرة ساعة في اليوم . وقد تم لأوربة
أيضاً نهب خيرات القارتين الكبيرتين افريقية وآسية وهو نهب لا يشبهه في الوقت
الحاضر الا الاستيلاء على الأراضي بالقوة .

وكل ذلك مكن لأوربة ولغيرها من البلاد الرأسمالية رفع مستوى الطبقة
الغنية فيها والتحق به بالتدرج مستوى باقي الطبقات نسبياً .

كلام ينغ على اكتظاظ فرنسة نسبي اذ زادت الثروة فيها في القرن التاسع عشر
وتغير نظام الحياة الاقتصادية وانتقل من نظام زراعي الى نظام صناعي متطور
شيئاً فشيئاً . فلا بد من اعتبار الحياة الاقتصادية كلها وما تتضمنه من أمور
كيفية كالعادات والسلوك وغيرها . ولقد أصبح اليوم عدد سكان فرنسة ٥٣ر٤٧٨
مليون دون أن يشعروا بالاكتظاظ بل زادت رفاهيتهم العامة .

ومع ذلك لما تقدمت العلوم الاحصائية والرياضية في الغرب طفق الباحثون
يتلمسون في الحياة الاجتماعية جوانب تستجيب للتقدير الكمي من أجل بيان
مستوى المعيشة . ينقل الجغرافي الفرنسي « دومنجون » في كتابه الجغرافية
البشرية^(١٣) ان الاقتصادي « ريثنغر » Reithinger فرق في أوربة بين البلاد
التي مستوى معيشتها مرتفع مثل بريطانيا والسويد وفرنسة وبلجيكة
والبلاد التي مستوى المعيشة فيها منخفض كبولندة وذلك بالموازنة بين السلع
الغذائية المستهلكة . فاذا استهلك الانكليزي وسطياً ١٥٥ كيلو غراماً قمحاً
و ٤٨ كغ سكرأ و ٤ر٠ كغ بنأ و ١٧٧ كغ بطاطا استهلك البولندي مقابل ذلك
٥١ كغ قمحاً و ١٠ كغ سكرأ و ٢ر٠ كغ بنأ و ١٥٩ كغ شعيراً و ٩٣٢ كغ بطاطا والفرق
راجع في رأيه الى نمط الانتاج الزراعي واختلاف معدل زيادة السكان .

ان دراسة مستوى المعيشة تعتمد أكثر ما تعتمد على الجوانب الكمية .
وقد قيل قديماً العلم قياس المقادير . ذلك أن القياس الكمي أوفر في البرهان
من الوصف الكيفي . وقد جرت محاولات منذ مطلع هذا القرن لتعريف مستوى
المعيشة وقياسه لدى شعب أو جماعة من الشعب . وذلك أمر مهم يقصد الى أهداف
ادارية أو الى تخطيط النماء الاقتصادي والاجتماعي ، ويعين على معرفة الحال
الراهنة لحياة شعب بصورة عامة ومقارنتها بالأحوال الأخرى في مختلف الأمكنة
والأزمنة ، وعلى ايضاح الأحوال المعيشية لدى مختلف فئات الشعب الواحد .

□ تعريف مستوى المعيشة وقياسه :

اتجه البحث في مرحلته الأولى نحو تحديد معيار معيشي لشعب ما بتعيين تكاليف معيشتة أو بيان الحد الأدنى لنفقاته المطلوبة يومياً . نجد مثل هذا الاتجاه عند الصناعي البريطاني بـ سـ راون تري Rawntree (١٨٧١-١٩٥٤) في بحثه المعنون « الفقر Poverty, a study of town life » وهي دراسة لحياة مدينة (سنة ١٩٠١) ، عرّف فيه معيار حاجات الشعب بأنه الحد الأدنى لتكاليف المعيشة في المدينة .

ولكن البحوث تجاوزت ذلك الى الانتباه لشروط العمل وعدد ساعاته وحوادثه الطارئة وحالة النشاط الاقتصادي . وكذلك النظر في العوامل الثقافية ومستويات التعليم وأحوال الصحة ، وجرى التنقيب عن معايير تقاس بها هذه الأمور فاتجه البحث الى مستوى الدخل : يقاس بالدخل القومي مقسوماً على عدد الأفراد أو الى متوسط دخل الأسرة أو متوسط الأجور والرواتب .

كذلك نُظر في مستوى الاستهلاك . كان يعبر عنه في الماضي بتقسيم كمية الاستهلاك الوطني على عدد الأفراد أو بمتوسط نفقات الأسرة أو بالاعتماد على بعض قوانين الاقتصاديين الألماني إرنست أنغل^(١٤) . ولكن مقارنة مستويات المعيشة باعتماد تلك الدلالات قد تؤدي الى مزال ومزالق . ذلك انها تشف عن جانب ضيق من جوانب الحياة اليومية . ثم ان توزيع الدخل والاستهلاك ليس سواء بين فئات الشعب . وقد تختلف قيمة النقد من حين الى آخر وإن أثر تضخم النقد ان أمكن الحد منه لا يمكن تجنبه . كذلك في المقارنات الدولية ينبغي أن يدخل في الحساب اختلاف القدرة الشرائية للنقد . ويصعب تحديد مدى الاختلاف في القدرة الشرائية بين مختلف البلدان .

ثم سارت البحوث حديثاً نحو الكشف عن قرائن أو أدلة أو ما يقال له « مؤشرات » للقياسات الكمية الأساسية مثل كمية الحريات اللازمة في التغذية للشخص الواحد وكمية البروتين للشخص الواحد ومساحة السكن للفرد ونسبة توزيع الصحف في ألف شخص يومياً وعدد الهواتف لكل ألف شخص . ولكن هذا الاتجاه أخرج الحاجات التي لا تخضع للقياس الكمي ومعظمها ذو صفة نفسية

وخلقية مثل الرضا وسعادة الأسرة والضمير النقي ومكانة الفرد في المجتمع والشعور بأداء الواجب .

ان مستوى المعيشة يمكن تجزئته الى عوامل متعددة مثل الغذاء والصحة والتعليم وغيره . وكل هذه العوامل يمثل صنفاً من مآرب الانسان . ويؤلف نيل هذه المآرب كلها مستوى المعيشة الرفيع . وقد اقترح جدول عام مجمل صنفت فيه المآرب صنفين :

أ - حاجات أساسية وضرورية .

ب - حاجات عليا وكمالية .

تشتمل الحاجات الأساسية الضرورية على الحاجات الطبيعية وهي :

١ - الغذاء (تعامي الجوع)

٢ - المأوى (تعامي التشرد)

٣ - الصحة (تعامي المرض)

وعلى الحاجات الثقافية وهي :

٤ - التربية والتعليم (تعامي الجهل)

٥ - الاستجمام واللهو (تعامي الارهاق)

٦ - الأمن (تعامي الخوف)

أما الحاجات العليا الكمالية فلا يصار الى تجزئتها وانما ينظر اليها جملة واحدة وتشمل عاملاً واحداً وهو فائض الدخل .

وتقاس العوامل المعروضة آنفاً بالمؤشرات أو الأدلة والقرائن المستندة الى قاعدة تتراوح فيها أرقام المؤشر بين الصفر والمائة كما في درجات الحرارة بين درجة تجمد الماء ودرجة غليانه فاذا كانت قيمة المؤشر صفراً دل ذلك على أدنى مستوى . وفي ميدان الحاجات الطبيعية يعادل هذا المستوى الأدنى ما نستطيع أن ندعوه بلغة العيش وهو يمثل الحال التي يستطيع المرء فيها أن يمسك عليه رمقه . ومن الجهة المقابلة ندعو القيمة العليا وهي المائة درجة الرضا أو البلهنية أو الرغد وهي تشف عن الحال التي يبلغ المرء فيها مآربه

بلوغاً كاملاً ومعقولا • وإذا تجاوزت الدرجة المائة صُرف النظر عن هذا
التجاوز واكتفي بدرجة المائة • إذا تجاوز مقدار الحريرات المأخوذة مثلاً
الحاجة المطلوبة لم يُسجل غير المائة • هذا في الحاجات الطبيعية •

وفي حال فائض الدخل للشخص الواحد لا تشير أدنى قيمة للفائض وهي الصفر
الى بُلغة العيش بل تفيد عدم الوفرة • وكذلك درجة المائة هنا لا تدل على تمام
الرضا وإنما تشير الى بحبوحة الوفرة وسعته • ولطبيعة هذا العامل الأخير إذا
تجاوزت قيمة المؤشر فيه المائة لا نقف عندها • بل يسجل ما بلغه المؤشر • ومع ذلك
فان دلالة كل عامل من العوامل المشار إليها قد تتعلق بتقدير الأفراد الذين هم
موضوع البحث • وعلى هذا تكون تلك الدرجات أو ما يمكن دعوته أوزان
العوامل مبنية على أحكام القيم فهي تقريبية ويمكن مع هذا تلافي نصيب من
التباين في هذه الأحكام •

هذا وقد ألفت منظمة الأمر لجنة من الخبراء لوضع تعريف لمستوى المعيشة
وقياسه فانتهت الى أن أفضل قياس ما اعتمد عناصر محددة تحديداً واضحاً في جملة
الحياة التي يحياها الشعب على أن تستجيب للقياس الكمي وتشف عن وجوه
النشاط الصحي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي المتعارفة على الصعيد الدولي •

واقترحت اللجنة اعتماد العناصر الآتية في بيان مستويات المعيشة :

- ١ - الصحة •
- ٢ - استهلاك الطعام والتغذية •
- ٣ - التربية والتعليم •
- ٤ - شروط العمل وأحوال الوظائف •
- ٥ - السكن •
- ٦ - الضمان الاجتماعي •
- ٧ - اللباس •
- ٨ - اللهو والاستجمام •
- ٩ - الحريرات الانسانية •

أما الاستهلاك العام للسلع وقضايا التوفير ووسائل النقل فلا تعتبر معايير مباشرة كالتي سلف ذكرها • ولكنها تزود بمعلومات مهمة ومفيدة •

ويضاف الى العناصر السابقة الأمور التالية التي تعين في الايضاح :

١ - السكان وقوة العمل •

٢ - الدخل والنفقات •

٣ - وسائل الاعلام ووسائل الانتقال •

ثم أعيد النظر في تلك الشؤون كلها مرة جديدة واعتمدت اللجنة في النهاية ما يأتي تيسيراً للموازنة بين المجتمعات •

عمدت اللجنة^(١٥) أول الأمر الى التفريق بين ثلاث قضايا هي :

١ - مستوى المعيشة المنشود STANDARD OF LIVING

٢ - مستوى المعيشة الطبيعي NORM OF LIVING

٣ - مستوى المعيشة (الواقعي) LEVEL OF LIVING

يتعلق التعبير الأول والثاني بالهدف الذي يسعى المرء لتحقيقه في حياته والذي تسعى الدولة نحو ضمانه لرعايتها • أما التعبير الثالث فيعني الأحوال المعيشية الجارية على الفرد أو بوجه عام على الشعب هذه الأحوال المعيشية متعددة فهي مادية واجتماعية واقتصادية وتربوية وصحية وسكنية ومتصلة بقضايا العمل وقد اقترحت اللجنة لزوم اعتبار القضايا الآتية في تعرف مستوى المعيشة أو مستوى الحياة •

١ - الصحة •

٢ - التغذية •

٣ - التربية والتعليم •

٤ - العمل وأحواله •

٥ - السكن •

٦ - الضمان الاجتماعي •

٧ - اللباس •

٨ - الراحة والترفيه •

٩ - الحريات الانسانية •

وقد وصت اللجنة اضافة على ما سبق بالاستعلام عن الشؤون الآتية :

١٠- السكان وقوة العمل •

١١- الدخل والانفاق •

١٢- الاعلام والنقل ويشملان :

آ - وسائل الاعلام •

ب- البريد والبرق والهاتف السلكي واللاسلكي •

ج- النقل والمواصلات •

كل تلك الشؤون تتفاوت صلاتها وعلاقتها بمستوى المعيشة وقد يحيط ببعضها نصيب من الغموض أو الابهام • ولذلك درسها المختصون وأوضحوا عناصرها •

□ عناصر مستوى المعيشة :

١ - الصحة :

آ - الأجل المتوسط أو المتوقع لدى الولادة (ويراد به متوسط السنين التي يعيشها فوج من المواليد حتى انقراضه) •

ب- معدل وفيات الرضع (والرضيع هنا ما لم يتجاوز العام الأول من حياته) •

ج- معدل الوفيات السنوي الأولي (أو الخام) •

هذه أدلة ثلاثة على مستوى الصحة • ولا شك ان الدليلين الأول والثاني أهم الثلاثة ولكن معدل الوفيات السنوي أسهل قياساً وأكثر شيوعاً فاذا اعتمد للموازنة بين المجتمعات لزم اعتماد احدي طريقتي المعايرة المعروفتين في علم السكان • هذا وقد يفيد اعتماد دليلين آخرين في هذا المجال وهما :

١ - عدد الأطباء في مجموع السكان وهذا يعطي عدد الأشخاص مقابل كل طبيب .

٢ - عدد الأسرة في المستشفيات أو عدد الأفراد مقابل كل سرير .

غير ان هذين الدليلين ليسا كافيين ولادقيقين ، لأن المهم في هذا المجال الكيف بالاضافة الى الكم . أي لا بد من تعريف أساليب العمل في المشافي وخبرة الأطباء وكفايتهم العلمية .

٢ - التغذية :

أ - متوسط المتاح من القوت الوطني مفاداً بالحريرات ومقايساً بمقدار الحريرات اللازمة للفرد .

ب - متوسط المتاح من القوت الوطني مفاداً بما يحويه من مجموع البروتين النباتي والحيواني .

ج - متوسط المتاح من القوت الوطني مفاداً بما يحويه من البروتين الحيواني .

د - نسبة الحريرات المستمدة من الحبوب والجزور والساكر .

يتعلق الدليل الأول بالجانب الكمي من نظام التغذية الشائع . ولكن لا بد من مقياسه بالمقدار اللازم للفرد . وقد أعدت منظمة الأغذية والزراعة الدولية F. A. O. عدة دراسات على مقادير الحريرات اللازمة للوحدة المستهلكة الكاملة (وهي الفرد في سن السادسة عشرة من العمر . وتنقص هذه الوحدة قبل هذه السن وبعدها) فاذا قلت الحريرات المتاحة للشخص عن المقدار اللازم دل ذلك على نقص التغذية كما . غير أنه لا بد أيضاً من تنوع الطعام لتلافي سوء التغذية ولذلك احتيج الى تبين مقدار البروتين عامة والبروتين الحيواني خاصة لأهميته في جودة الغذاء . اذ يدل تعرف البروتين في الدليل الثاني والثالث على تنوع الأقوات .

والدليل الرابع يشف عن شكل نظام التغذية . فهو يشير الى مقادير النشويات والساكر ولا بد في هذا الشأن من تناسب المقادير في مختلف الأدلة . فاذا

أفرطت السكاكر والنشويات في التغذية دلت على سوءها إذ لا بد من أنواع أخرى من القوت الملائم لتكامل الغذاء .

هذا وتساعد دراسة نفقات المعيشة على تزويد الباحث بالمعلومات المناسبة لحساب تلك الأدلة .

٣ - التربية والتعليم :

أ - نسبة الذين يقرؤون ويكتبون من السكان من سن الخامسة عشرة فأكثر .

ب - نسبة المسجلين في المدارس الابتدائية والثانوية .

ج - نسبة المسجلين في معاهد التعليم العالي .

وقد يستعان بدليلين آخرين :

د - عدد المتخرجين أو متوسط عدد سنوات التعليم والدراسة للأفراد من سن ٢٥ فأكثر .

هـ - نسبة المعلمين الى عدد التلاميذ بالمدن والريف في مجال التعليم الابتدائي .

٤ - أحوال العمل :

أ - نسبة البطالة في مجموع قوة العمل .

ب - الأجور الحقيقية والنسبية والرواتب (يدخل فيها أيضاً الكسب الاضافي) في بعض الوظائف والحرف (تختار اختياري) .

٥ - السكن :

أ - نسبة الذين يقيمون في منازل دائمة من مجموع السكان .

ب - نسبة المنازل التي تضم ثلاثة أشخاص أو أكثر في الغرفة .

ج - نسبة المنازل المسكونة التي يتوافر فيها الماء الجاري أو التي لا تبعد عن مكان الماء الجاري أكثر من مائة متر .

د - نسبة المنازل التي فيها مجار صحية (كنف) .

وقد يضاف الى ما سبق أيضاً حسب الواقع :

- هـ - نسبة الذين يعيشون من السكان في منازل وقتية .
 - و - متوسط الأفراد في الغرفة الواحدة من هذه المنازل .
 - ز - نسبة المنازل التي في كنفها ماء جار .
 - ح - نسبة المنازل التي ليس في كنفها ماء جار .
 - والمنازل الوقتية هي الخيم والأكشاك وما شابهها .
- ٦ - التأمين الاجتماعي :

تتفاوت نظم التأمين الاجتماعي في اتساعه وشموله بتفاوت المجتمعات (تأمين على الصحة) تأمين على البطالة ، مساعدات وتمويضات اجتماعية ، مساعدات للأسر ... الخ) .

- ولهذا التفاوت صعب وضع أدلة أو معايير عالمية في هذا المجال .
- ٧ - اللباس :

اللباس النظيف المحتشم دليل على حسن مستوى الحياة ولكنه يختلف باختلاف المناخ والحرفة والمنصب كما يختلف باختلاف الأزياء والطبقات الاجتماعية . ولم يوضع له أدلة .

٨ - الراحة والترفيه :

- يعسر انتقاء أدلة معيارية على توافر الترفيه والراحة فهي تتفاوت بتفاوت الأمزجة والمجتمعات . ومع ذلك يمكن ايراد الوسائل الآتية :

- ١ - قاعات السينما والمسارح ودور الأوبرا مقابل مائة ألف أو مليون نسمة .
- ٢ - المتاحف الأثرية وعدد زوارها في السنة .
- ٣ - المتاحف التاريخية الطبيعية والفنية دائمة ووقتية .
- ٤ - المكتبات والمراكز الثقافية وعدد الكتب فيها وعدد القراء بالقياس الى مجموع السكان .

٥ - الحقائق العامة .

٦ - الأندية الرياضية والاجتماعية والفنية في مجموع السكان .

٩ - الحريات الانسانية :

من الصعب الحكم على توافر هذه الحريات في مختلف المجتمعات اذ كان ذلك يتعلق بنوع الحكم ووجهة النظر السياسية . ومع ذلك يذكر في هذا المجال .

أ - حرية الصحافة .

ب - حرية المعتقدات : دينية وفكرية وسياسية .

ج - حرية الانتخاب .

د - حرية العمل .

١٠ - أدلة عامة :

تعتمد بعض الأدلة بوجه العموم مما يشف عن مدى التضامن الاجتماعي وطرز الانفاق ونوع الاقتصاد أشهرها :

١ - نسبة الوفيات بين الذين هم في سن الخمسين فما فوقها الى مجموع الوفيات كلها .

٢ - نسبة الانفاق على الطعام الى مجموع نفقات الأسرة .

٣ - نسبة قوة العمل الزراعية بين الذكور الى مجموع قوة العمل بين الذكور .

١١ - معلومات أساسية أخرى :

أ - السكان وقوة العمل :

١ - نسبة مجموع السكان الى قوة العمل .

٢ - نسبة العاملين الذين أعمارهم أقل من الخامسة عشرة .

٣ - نسبة الأشخاص العاملين الذين أعمارهم أكثر من ٦٥ سنة .

٤ - توزيع قوة العمل حسب وجوه النشاط الاقتصادي .

ب - الدخل والانفاق :

١ - دخل الفرد (خارج قسمة الدخل القومي على الأفراد)
ومتوسط نموه .

٢ - متوسط انفاق الفرد ومعدل نموه السنوي .

٣ - انفاق الدولة العام والحصص الموزعة منه على التعليم
والاسكان والصحة وسائر الخدمات الاجتماعية .

٤ - انفاق الفرد الخاص والحصص الموزعة منه على الصحة والغذاء
والتعليم والسكن .

٥ - أنواع نفقات الأسرة .

ج- الاعلام والمواصلات والنقل :

١ - وسائل الاعلام .

- متوسط عدد الصحف اليومية وغير اليومية والمجلات في كل
ألف شخص من السكان .

- عدد أجهزة الراديو العاملة في كل ألف شخص .

- عدد أجهزة التلفزيون العاملة في كل ألف شخص .

٢ - البريد والبرق والهاتف :

- عدد المشتركين بالهاتف في كل ألف من السكان .

٣ - النقل :

- عدد السيارات أيًا كان نوعها لكل مائة ألف من السكان .

- مجموع أطوال الطرق العادية بالكيلومتر موزعة حسب
أحوالها معبدة أو ممهدة مقابل كل كيلومتر مربع من
مساحة البلاد .

- أطوال السكك الحديدية لكل مائة كيلو متر مربع من
مساحة البلاد .

لا يخفى أن تبين تلك الشؤون كلها مفيد ولكنه يصعب الحصول عليه . وقد وضع تلك المعايير أناس استندوا الى أحكام القيم التي تتلامح لهم في مجتمعاتهم والى الحاجات التي يستشعرونها في تلك المجتمعات . ثم ان الاحصاءات في بعض تلك المجالات ليست متوافرة دائماً وهي ان توافرت تقريرية وغير دقيقة . ان كميات البروتين والحريرات في مجال التغذية تختلف باختلاف المناطق باردة ومعتدلة وحارة . حتى لو وضعنا مقاييس دقيقة لكل مناخ لتعذر علينا ضبطها . ومع كل ذلك فأمثال تلك الاعتبارات مفيدة لأنها تحمل على التحسين وتحفز على وضع الخطط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية للنهض بالشعوب .

خاتمة :

كيف ننهي بحثنا نهاية مناسبة ؟ نلقي نظرة عامة على مستويات المعيشة في العالم ولو من بعض الجوانب .

لقد ازداد انتاج السلع في أوربة ازدياداً كبيراً منذ الثورة الصناعية فيها وغدا الغرب الرأسمالي في العصر الحاضر أغنى بلاد العالم حتى سميت مجتمعاته مجتمعات الجدة والسعة والبحبوحة .

وما كان مقصوراً على الأمراء في المتاع والأبهة والخيرات أصبح مبدولاً للناس كافة . ولو اوزنا بين ما يستهلكه الفلاح الانكليزي والفلاح الفرنسي مثلاً قبل قرن وما يستهلكه اليوم أحفاده لوجدنا البون كبيراً .

ثم ان تأميم الطب والضمان الاجتماعي والصحي الى جانب تجويد الغذاء ووفرة المال قد ساعد على النظافة وتحسين الصحة العامة وزيادة أوزان المواليد وأطوال القامات ورفع قيمة الفرد ووقوى التضامن بين فئات المجتمع المختلفة . ولكن لتلك المجتمعات عيوباً منها الاسراف والاستهلاك المفرط ومنها صرف مبالغ كبيرة في الصناعات الحربية وتكديس الأسلحة وبيعها من البلاد الفقيرة بيعاً مربحاً ومستغلاً . ثم ان الآلية التي تربط الانتاج بالاستهلاك في النظام الرأسمالي تخلق من وراء تقدم التكنولوجيا حاجات جديدة في الاستهلاك يقابله شعور دائم بالحرمان وعدم الرضا في المجتمعات المتقدمة . عدم الرضا هذا

يثوي في أعماق النظام الاقتصادي الرأسمالي لأنه ناشئ عن عدم المساواة . اذ يتجه هذا الاقتصاد الى تنويع السلع والتفنن في صنع الطريف منها المستظرف والغالي كالسيارات مثلا لعرضها على الأغنياء المثرين فلا يصل اليها الا فئات خاصة من السكان ، هذا الى ازدياد تلوث البيئة الطبيعية من أجواء وتربة وبحار .

ثم ان في المجتمعات الصناعية المتقدمة « جيوباً » من الناس تترجح في الفقر المدقع . قدر بعض الاقتصاديين عدد الفقراء في الولايات المتحدة بنحو ثلاثين مليوناً . افتقر بعضهم بسبب التفرقة العنصرية وبعض بالمعيشة الزراعية وآخرون مات عائلوهم شباباً .

أما البلاد النامية فيكفي أن نشير الى قضية عوز القوت فيها والجوع . أظهرت احصاءات منظمة التغذية والزراعة أن ملياراً وثلاثمائة مليون من سكان الأرض في هذه البلاد سنة ١٩٨١ مصابون بسوء التغذية المزمن منهم خمسون مليون نسمة على أقل تقدير يموتون من المجاعة . وثمة تقرير يخمن غلة الحصاد في الأرض كلها سنة ١٩٨١ بمقدار ١٦٢٥ مليار طن من الحبوب بزيادة ٢٥٠ مليون طن على غلة السنة السابقة . وأعلنت وزارة الزراعة الأمريكية أن غلة الحبوب فيها بلغت ١٩٦ مليون طن بزيادة ١٦ مليون طن عليها في السنة الفائتة منها ٧٤٨ مليون طن من القمح . والسؤال الذي يبادر الذهن فوراً ما سبب الجوع والعوز والغلات وفيرة .

كتبت جمعية المستهلكين في جمهورية ألمانيا الاتحادية ما معناه أن أكثر من مليون طن من الغلات الزراعية أتلف تلك السنة في عشرة بلاد هي أعضاء المجموعة الاقتصادية الأوروبية وذلك للحفاظ على الأسعار العالمية . ولم تكذب ذلك الخبر ولا أيدته السلطات المسؤولة في تلك البلاد . وهكذا تغدو مجاعات ملايين الناس وهلاك قسم كبير منهم ذريعة لغنى بعض المتمولين المفرط . هذا وان أكثر من ٩٠٪ من العلماء والتقنيين في العالم يشتغلون لحساب البلاد المتقدمة و ٩٥٪ من نشاطهم موجه في خدمة مصالح هذه البلدان كما أن مبالغ لا تكاد تصدق تنفق كما ذكرنا آنفاً في الصناعات الحربية وانتاج آلات الدمار (١٦) .

ان التعاون العادل بين البلاد المتقدمة والبلاد النامية واجب خلقي يقع على كاهل البلاد المتقدمة نحو البلاد التي سبق أن استلغها الغرب ولا يزال يستغلها أسوأ أنواع الاستغلال وهو ضرورة مبرمة في التطور السليم والسلمي البناء لتلافي الأخطار المحدقة . ذلك أن صورة العالم الحديث توحى بارتباط البلاد جميعها ببعضها ببعض، متقدمها وناميها، غنيها وفقيرها، كبيرها وصغيرها، ارتباطاً حيويّاً وثيقاً يظهر أثره كل يوم . فلا بد من التفكير في حلول المشكلات الاقتصادية والعنصرية على أساس العدالة والتعاون لكي يتم توازن هذا الكوكب البديع الذي نعيش على ربوعه ألا وهو أمنا الأرض .

★ ★ ★

أشرنا في آنف الكلام الى عدم الرضا في المجتمعات الرأسمالية على الرغم من الجدة واليسار والبجوحة التي يجدون أنفسهم فيها . وذلك بسبب تفاوت الطبقات وكثرة السلع الكمالية وتنوعها وفضل بعضها على بعض والشعور الدائم بالحرمان بين الطبقات الدنيا تلقاء الطبقات العليا الراتعة في شتى الخيرات . يندد بعدم الرضا هذا في تلك البلاد الاحصائي الفرنسي المشهور ألفريد سوفي ويطامن مواطنيه مقتضياً اياهم الرضا ذاكراً أن مستوى المعيشة في البلاد النامية الآن يعادل مستوى المعيشة في أوربة قبل مائة وخمسين عاماً وهو في البلاد الرأسمالية كل يوم بارتفاع منسوباً الى مثيله في البلاد النامية (١٧) .

ان الرضا عامل نفسي كبير في المجتمع . خطأ الاحصائيين أحياناً انهم يريدون أن يعتمدوا على الجانب الكمي في الحياة وحده . الجانب الكيفي ذو شأن كبير أيضاً وان كان الكم والكيف مشتبكين . هل ننسى الحكمة الانجيلية التي تقول : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ؟

فاذا انتبهنا لعامل الرضا هذا وبحثنا عن الفئة الراضية التي برضاها تحسب نفسها أنها تعيش في أعلى مستوى وجدناها فئة الصوفية . ان للرضا عندهم مكانة كبيرة . وهم يتناقشون هل الرضا مقام من المقامات أو حال من الأحوال . ولكنهم يميزون بين الرضا بالأمور التي لا طاقة لهم في ردها والأمور التي هم مسؤولون فيها . فقد جاء في الرسالة القشيرية أن الواجب على العبد أن

يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به اذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو
يجب عليه الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين .

★ ★ ★

ذكرنا في مستهل البحث شبه المجتمع بالكائن الحي وهو شبه قائم من وجوه
متعددة . وبالأستناد الى هذا التقريب تحاكي نكسات المجتمع الأسقام التي تنتاب
ذلك الكائن . ويقابل مستوى المعيشة في المجتمع وهو موضوع بحثنا مستوى
حياة الفرد . وقد عرضنا ملامح لمستوى المعيشة الجماعي خلال العهود الفائتة ،
ثم تطرقنا الى قياسه في العصر الحديث . وورد فيما سبق وصف بعض الأحوال
الشاذة كالأوباء التي كانت تجتاح الانسانية أفراداً وجماعات وتفتك بالكثير الجم
من بني البشر . الا أننا نشهد أوباء جديدة ليست أقل خطراً ولا أضعف شراً
لكنها من افتتات البشر وتديرهم . هي أوباء نازية مسعورة تظهر في الحين بعد
الحين والمرحلة تلو المرحلة ، تعتمد على الأسلحة المتطورة المدمرة فتقضي على
النساء والشيوخ والأطفال والمشافي والمرافق العامة . ذلك وباء مسؤول عن
انتشاره الانسان « المتحضر » المزهو بالصناعة الحديثة المتقدمة الفتاكة . هذا
دون الكلام على الأسلحة النووية المكذبة والصواريخ البعيدة المدى العتيدة وهي
أشد فتكاً وتدميراً .

يقدر الخبراء التكاليف الحربية بمليون دولار في الدقيقة الواحدة وبستمائة
مليار دولار في العام الواحد . وهذا يعني أن الانسانية ماضية في طريق
الضلال المريب .

ثم ان الأرض تبقى المكان الأول الوحيد الذي يقف عليه الشعب في غضون
حياته المادية والفكرية ليحيا حياة طبيعية يسعى الى تحسين مستواها . ولا
نتصور مجتمعا انسانياً يعيش دون أرض . ونحن نشهد في عصرنا كيف تسحب
الأراضي بالتدريج ومرحلة بعد مرحلة بشكل من الأشكال اختلافاً أو اجتياحاً من
تحت أرجل الشعب الذي هو صاحبها والذي عاش عليها منذ آلاف السنين حتى
العصر الحاضر لتعطى غرباء عنها يحاولون بناء أسطورة رثة هشة الصور تروى في
غيش العهد القديم .

كذلك من أعجب العجائب عندنا في العصر الحاضر أن يطرد شعب من موطنه الأصلي ويشرّد تحت كل كوكب ليصار إلى تجميع متشردين من كل فج عميق ومن بيئات اجتماعية متفاوتة تجميعاً صناعياً يتجافى عن الوجود الطبيعي . فلا غرو أن يسلك هذا التجمع الصناعي – بدافع من الاستعمار قديمه وحديثه وتحت أعين المنظمات العالمية – دروب الوحشية والظغيان ليستمر ما يعتوره من تفكك ضمني ومن اختلال معيشي ناشز مستند إلى معونات اقتصادية جائرة حائرة وكذلك ما هو فيه من كيان طارئ وبيل .

ان دفع العدوان والقضاء على هذه الأوباء ومنع لصوصية الأرض قهراً أو اختلاساً والحفاظ على حقوق السكان الشرعيين هي أول الشروط للتعايش السلمي والتعاون العالمي ولرفع مستوى المعيشة لا في مجتمع واحد صناعي عارض على حساب غيره من المجتمعات بل في المجتمعات كافة

عبد الكريم اليافي

★ ★ ★

الهوامش :

- ١ - اللبيقية نسبة إلى دبيق بليدة في مصر كانت مشهورة بصنع الثياب .
- ٢ - القوهي نسبة إلى قوهستان وكانت تصنع ثياباً رقيقة ناعمة . هذه الأخبار مأخوذة من كتابنا «دراسات اجتماعية ونفسية» .
- ٣ - حلية الأولياء : سيرة عمر بن عبد العزيز .
- ٤ - النسر جمع نشرة وهي الرقية يعالج بها المريض أو المجنون وفي بعض الكتب البشر .
- ٥ - عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره ميخائيل عواد .
- ٦ - حقه كوركيس عواد .
- ٧ - لو قال عمارة أو منصور تخفي من الحور في أرجائها العين أو قال تخفي من الحور في الإبهاء والعين لكان أكثر قبولا في هذا العصر لأن وصف الفواني بالبقر ولو أنسية أصبح متروكا وهذا يدل على تطور الأذواق في اختيار التشبيهات ولكن عمارة حفيد الشاعر الكبير جرير كان يعيش في بادية البصرة ويختلف إلى بني العباس ولبدائوته نجد مثل ذلك التشبيه الذي كان جميلا . كذلك شبه السفن الآتية والذاهبة في نهر دجلة بالبراذين وهو ما ألفه في البادية إلا أن البرذون وهو يضرب الأرض بحوافره أقل رقة من السفينة المنسابة على سطح الماء إذ الماء أقل مقاومة من الأرض الجامدة . وأو قال مثل الشواهين لكان أوقع في النفس إذ كان الهواء أقل مقاومة من الماء وحركة الطير أسرع من حركة البرذون والطف ولكنه ربما أراد الشكل والحجم فإن البرذون أضخم من الشاهين . ومع ذلك ففي هذه الأبيات على جمالها مجال للمناقشة .

والفقارة في الأصل ما تنفذ من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجب وهي هنا على المجاز والأبيات وما بعدها من شعر في وصف بغداد مأخوذ من معجم البلدان وربما كان الأصل في البيت الأخير يعلو فقارتها باعتبار قصر فاعل للفعل يعلو .

٩٨ - معجم البلدان (مادة بغداد) .

١٠ - مطبعة وادي النيل بمصر سنة ١٢٨٦ .

١١ - نشم أي ابتدا ويقال نشم في الشر أي اخذ ونشب .

١٢ - دار الوليد حمص مع مقدمة للدكتور بدر الدين السباعي عي . وقد جاء في الكتاب صفحة ٢٩ وغرق في دون شهرين ثلاثون امرأة بسبب ذلك والصحيح حرق لما سبق في كتاب ابن اللباد من أن الفاعل كان يأمر الوالي بإحراقه . وكلام القريري تلخيص لما جاء في كتاب « الافلاحة والاعتبار » من ذكر تلك المجاعة .

١٣ - A. Demangeon, Problèmes de Géographie humaine, pp. 44-45.

١٤ - ارنست انغل Ernst Engel اقتصادي ألماني (١٨٢١ - ١٨٩٦) درس نفقات الأسر في بلجيكا وانتهى الى اربع قضايا :

١ - كلما زاد الدخل تزيد النفقة على الغذاء زيادة مطلقة ولكنها تنقص بنسبتها الى المجموع .

٢ - مهما تغير الدخل يبق نسبة المصروف على اللباس ثابتا تقريبا .

٣ - نسبة النفقة على المسكن والوقود والإضاءة تبقى نفسها مهما تبدل الدخل .

٤ - كلما زاد الدخل زادت النفقات في سبل أخرى غير ما تقدم .

وقد أكدت الدراسات الحديثة القانون الأول والرابع أما الثاني والثالث فربما كانا صحيحين في زمن انغل ولكنهما ليسا عامين .

والملاحظ في مستوى المعيشة أنه كلما نقصت النفقة على الغذاء نقصانا نسبيا في مجموع الدخل دل ذلك على الرفاهية والبجوحة .

١٥ - United Nations, International Definition and Measurment of Levels of Living, E/CN. 3/270/Rev, 1, E/CN. 5/353, Sales No. 61,IV 7. New York, 1961.

١٦ - انظر ايضا كتاب « كيف يموت النصف الآخر من العالم » تأليف سوزان جورج وترجمة كمال خوري وهو من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٨١ .

١٧ - Alfred Sauvy, Mythologie de notre temps, Payot, Paris, 1963.

